٤٠- حجة الوداع

فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة تجهز[١] للحج، وأمر الناس بالجهاز له، فخرج لخمس ليال بقين من ذى القعدة. حتى إذا كان بسرف[٢] أمر الناس أن يحلو بعمرة[٣] إلا من ساق معه الهدى. ثم مضى رسول الله ﷺ إلى حجه. فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجِّهم وخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس اسمعوا قولى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها..

وقال بعد أن بيَّن شرائع الإسلام: قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم[٤] به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة رسوله، أيها الناس. اسمعوا قولى هذا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب

---

(١) تجهز: استعد.

(٢) سرف: مكان قرب مكة.

(٣) العمرة: إحرام وطواف وسعى.

(٤) اعتصمتم: تمسكتم.

نفسه. فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت. اللهم اشهد.

وعن عائشة: قالت أمر رسول الله الناس أن يحلوا بعمرة. وحضتُ ذلك اليوم فدخل على وأنا أبكى قال: ما لك يا عائشة لعلك نفست[1]؟ قالت: نعم، والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا. فقال: لا تقولين ذلك فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت - حتى إذا كانت ليلة الحصبة، بعث بى رسول الله ﷺ مع أخى عبد الرحمن بن أبى بكر. فأعمرنى[2] من التنعيم[3] مكان عمرتى التى فاتتنى.

قال ابن إسحاق، وحدثنى عبد الله بن نجيح أن رسول الله ﷺ حين وقف بعرفة قال: هذا الموقف (للجبل الذى هو عليه)، وكل عرفة موقف. وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف، وكل المزدلفة موقف. ثم لما نحر[4] بمنى قال: هذا منحر، وكل منى منحر فقضى رسول الله ﷺ الحج. وقد أراكهم مناسكهم. وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف

---

(١) نفست: حضت.

(٢) أعمرنى: بعثنى لأعمل عمرة.

(٣) التنعيم: ويسمى اليوم مسجد عائشة منذ عمرتها تلك.

(٤) نحر: ذبح.

ورمى الجمار[1] وطواف البيت. وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم. فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع وذلك أن رسول الله ﷺ لم يحج بعدها[2].

وروى البخارى عن طارق بن شهاب أن اليهود قالت لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً فقال عمر: إنى لأعلم حيث أنزلت ويوم أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: يوم عرفة وإنا والله بعرفة. وعندما سمعها عمر بكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[3].

٤١- وفاة رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق. وقال الزهرى: حدثنى أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ خرج عاصباً[4] رأسه حتى جلس على المنبر. ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى[5] على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال: إن رجلاً خيره الله تعالى بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله. قال ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد فبكى وقال: بل نحن

---

(١) رمى الجمار: الرجم للشيطان.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٦٠١ - ٦٠٨ مقتطفات.

(٣) البخارى، ٢/٦/٦٣.

(٤) عاصباً: رابطاً.

(٥) صلى: استغفر ودعا.

نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال: على رسلك[1] يا أبا بكر. ثم قال: انظروا إلى هذه الأبواب اللافظة[2] فى المسجد فسدوها إلا بيت أبى بكر. فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة منه.

وعن ابن أبى مليكة قال: لما كان يوم الاثنين، خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه إلى الصبح وأبو بكر يصلى بالناس. فصلى قاعداً عن يمين أبى بكر فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعاً صوته يقول: أيها الناس سعرت[3] النار. وإنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن. ثم دخل رسول الله ﷺ بيته.

وعن عائشة قالت: رجع إلىَّ رسول الله ﷺ ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع فى حجرى[4]. فدخل علىَّ رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر. قالت: فنظر إلى رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم. قالت: فأخذته فمضغته حتى لينته. ثم أعطيته إياه. قالت: فاستن[5] به به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط. ثم وضعه

---

(١) على رسلك: يكفيك.

(٢) اللافظة: المفتوحة.

(٣) سعرت النار: أوقدت.

(٤) حجرى: صدرى.

(٥) استن: تسوك.

ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى. فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى[1] فى الجنة فقلت: خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق.

قال ابن إسحاق: قال الزهرى، وحدثنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال:

لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال:

إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول ﷺ قد توفى، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات. ووالله ليرجع رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، ورسول الله ﷺ مسجى فى ناحية من البيت عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبى أنت وأمى. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها. ثم لن تصيبك موتتين أبداً. قال: ثم رد البرد على وجه

---

(١) بل الرفيق الأعلى: الله تعالى.

رسول الله ﷺ ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصت. فأبى إلا أن يتكلم. فلما رآه أبو بكر لا ينصت، أقبل على الناس. فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال: ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، إنما هي في أفواههم. قال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت(١) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

وقام علي بن أبي طالب والعباس والفضل وقثم وغيرهم بغسل رسول الله ﷺ وعليه قميص يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم، ثم كفن في ثلاثة أثواب، واختلف المسلمون في دفنه. فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل:

---

(١) عقرت: عجزت عن الوقوف فوقعت على الأرض.

ندفنه مع أصحابه. فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض[1] نبى إلا دفن حيث قبض. فرُفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه، وحفر له تحته. ثم دخل الناس يصلون عليه، دخل الرجال حتى إذا فرغوا[2] دخل النساء حتى إذا فرغن أدخل الصبيان. ولم يؤم[3] الناس على رسول الله ﷺ أحد. ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء.

وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، والفضل بن عباس وقثم بن العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ. وقد قال أوس بن خولى لعلى بن أبى طالب: يا على أنشدك[4] الله، وحظنا[5] من رسول الله ﷺ. فقال له: انزل. فنزل مع القوم وقد كان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ فى حفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة[6]، وقد كان رسول الله ﷺ يلبسها، ويفترشها[7]

---

(١) قبض: توفى.

(٢) فرغوا: انتهوا.

(٣) يؤم: يصلى إماماً.

(٤) أنشدك الله؛ استحلفك بالله.

(٥) وحظنا مع رسول الله: أى نصيب الأنصار من دفن رسول الله ﷺ.

(٦) قطيفة: دثار مخمل.

(٧) يفترشها: ينام عليها.

فدفنها فى القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً.

قال: فدُفِنَتْ مع رسول الله ﷺ.

وقال حسان بن ثابت يبكى رسول الله ﷺ:

بطيبة رسم[1] للرسول ومعهد

منير وقد تعفو[2] الرسول وتهمد

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت

بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم

وقد وهنت[3] منهم ظهور وأعضد

يُبكُّون من تبكى السموات يومه

ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد[4]

---

(١) الرسم: ما بقى من آثار الدار.

(٢) تعفو: تزول.

(٣) وهنت: ضعفت ضعفًا شديداً.

(٤) أكمد: حزينون.

وهل عـدلت يومًـا رزية[1] هالك

رزية يوم مـات فـيـه مـحـمـد؟[2]

***

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيد المرسلين، على آله وصحبه ومن سار بسيرته واقتدى بنهجه إلى يوم الدين.

(١) رزية: مصيبة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٦٤٩ - ٦٦٦ مقتطفات.

obeikandl.com